القصيدة ومراحل الإبداع الفني
عند ابن طباطبا العلوي
في "عيار الشعر"

د. علي جاد الحق سعيد

مدرس الأدب والنقد

بكلية الدراسات الاسلامية

للبنين بقنا

القصـــيدة ومراحـل الابـداع الفـنى عنـد ابـن طباطبـا العـــلوى فى « عيـــار الشـــعر »

الفصـــــل الأول

مفهـوم القصـيدة

— ١ —

وحـدة الشـعر العـربى هى القصـيدة ؛ والقصيدة مجموعة من أبيـات الشـعر من بحـر واحـد وقافيـة واحـدة ، قـد التـزم فيهـا أحـكام عـروض الشـعر العـربى(١) • ويقـول لطـفى عبد البديـع : القصـيدة بنـاء يتركب من العنـاصر والقـوى التى تتظاهر على نحـو يتـم فيـه تكامل المعانى الشعرية المتبلورة فى حقـائق لغـوية(٢) •

هـذا تعـريف القصـيدة فى النقـد الحديث ، أمـا فى النقـد القـديم ، فـلا نكـاد نعثـر فيـه على تعـريف للقصيدة لكننـا لا نعـدم أن نجـد نتفا فى هـذا عند اللغويين والنحويين وأصحاب المعـاجم • والقصـيدة من القصـيد وهـو ما تـم شـطر أبياته

---

١ ــ اصـول النقـد ص ٢٨٤ ؛ د. محمد عبد المنعـم خفـاجى ، مكتبـة الكليات الأزهـرية .

٢ ــ التكامل فى القصـيدة العربية ص ١٦٩ ، وانظـر ص ٢٢ بناء القصـيدة فى النقـد العـربى القـديم ، د. يوسف بكـار ، الطبعة الثانية دار الأندلس .

أو شطر أبنيته (٣) . ويذهب الفراء الى أن « القصيد » مأخوذ من المخ السمين ، الذى يتقصد أى يتكسر (٤) . أما سبب التسمية فقيل : لأنه قصد واعتمد ، قال ابن جنى : سمى قصيدا ، لأنه قصد واعتمد ، وقيل : لأن قائله احتفل له فنقحه باللفظ الجيد ، والمعنى المختار ، وقيل : سمى الشعر التام قصيدا ، لأن قائله جعله من بالله قصد له قصدا ولم يحشه حشيا على ما خطر ببباله وجرى على لسانه ، بل روى فيه خاطره واجتهد فى تجويده ولم يقتضبه (٥) . وتابع ابن رشيق اللغويين والنحويين فى تعريفاتهم حين ذهب الى أن اشتقاق القصيدة من « قصدت الى الشىء » وكأن الشاعر قصد الى عملها على تلك الهيئة (٦) . وكل هذه التعريفات مأخوذة من المدلول اللغوى لكلمة قصد ، ولا يمكن أن نعدها تعريفا للقصيدة التى أهمل تعريفها النقاد . ومن النقاد القدامى الذين أهملوا هذا التعريف ابن طباطبا العلوى على الرغم من أنه نص صراحة على لفظ القصيدة فى قوله : « فاذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذى يريد بناء الشعر عليه فى فكره نثرا » (٧) . ولسنا ندرى سببا

---

٣ ـ لسان العرب ـ قصد والقاموس فصل القاف باب الدال .

٤ ـ اعجاز القرآن ص ٢٥٧ الباقلانى تحقيق السيد صقر ، دار المعارف بمصر ١٩٦٣ م .

٥ ـ اللسان : قصد .

٦ ـ العمدة ج ١ : ١٨٣ تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الثالثة ، مطبعة السعادة القاهرة ١٩٦٣ م .

٧ ـ عيار الشعر ص ٧ لابن طباطبا ، تحقيق عبد العزيز ابن ناصر المانع ـ مطبعة المدنى ـ المؤسسة السعودية بمصر .

لهـذا سـوى ما نظنـه من أنهـم ربمـا اكتفوا بالأصول والمعانى التى حددهـا اللغويون واحتوتها المعجمـات (٨) .

ثمـة مسـألة أخـرى فى القصـيدة شغلت اللغويين القدامى وشـارك فيهـا بعض النقـاد ، هى عـدد الأبيـات التى تستحق أن تحمـل اسـم القصيدة . ذهب الأخفش الى أن القصيدة ماكانت على ثلاثـة أبيـات (٩) . وهـذا العـدد لا يكفى ، لأن الموقف الذى يحفـز الشـاعر لأن يؤلف قصيدته موقف لـه أهميتـه وخطـره وقـد جـرى العـرف العـربى بأن تتنـاول القصـيدة موضوعات شـتى ، ولا يمكن أن توفى هـذه الموضوعات فى هـذا العدد القليل من الأبيـات . قـال ابن جنى : وفى هـذا القـول عن الأخفش جـواز ، وذلك لتسميته ما كـان على ثلاثـة أبيـات قصـيدة ، وقـال : ان القصـيدة ما جـاوزت أبياتها الخمسـة عشر وما دون ذلك قطعـة (١٠) . وقـال الفـراء : القصـيدة ما بلغت العشرين بيتـا فأكثـر (١١) ، وقـال ابن رشـيق : اذا بلغت الأبيات سبعة فهى قصـيدة . ومن النـاس من لا يعـد القصـيدة الا ما بلـغ العشـرة وما جاوزها ولـو ببيت واحـد (١٢) .

---

٨ ــ بنـاء القصـيدة ص ٢٤ .
٩ ــ أصـول النقـد ص ٢٨٤ ، اللسـان : قصـد .
١٠ــ اللسـان : قصـد .
١١ــ اعجـاز القـرآن ص ٢٥٧ .
١٢ــ العمـدة ج ١ ص ١٨٩ .

— ٢ —

ابن طباطبا وصناعة الشعر :

الأدب عند العرب « صناعة » والصناعة ملكة نفسانية تصدر عنها الأفعال الاختيارية من غير روية ، وقيل : هى العلم المتعلق بكيفية العمل (١٣) .

وجاءت كلمة « الصناعة » فى القواميس العربية بمعنى حرفة الصانع وقالوا : صانع من الصناع : أى ماهر فى صناعته وصنعته ، ثم استعملوا هذه المادة فى الفنون والأدب فقالوا : رجل صنع اللسان ، ولسان صنع يقولون ذلك للشاعر ولكل بليغ (١٣) .

والتباس الصناعة بالفنون الجميلة قديم ، فقد ربط اليونان بين الفنون الجميلة وبين الصناعات ، وجعلت الشعر صناعة والشاعر صانعا (١٤) .

وليس من شك فى أن أرسطو كان أول من استعمل اصطلاح

١٣ـ كتاب التعريفات للسيد الشريف على بن محمد الجرجانى ، طبعة الحميدية ١٣٢١ هـ .

١٣ـ القاموس المحيط ، اساس البلاغة .

١٤ـ معايير الحكم الجالى فى النقد الأدبى ص ٢٠٠ ، د. منصور عبد الرحمن ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠١ هـ .

« صناعة » فى الشعر حين قال : انا متكلمون الآن فى صناعة الشعر وأنواعها (١٥) .

وكذلك ربط العرب بين الشعر والصناعة من قبل أن يتصلوا باليونان ، فقد روى الجاحظ : أن « عمر بن الخطاب » — رضى الله عنه — قال : خير صناعات العرب أبيات يقدمها الرجل بين يدى حاجته يستميل بها الكريم ويستعطف اللئيم (١٦) وشاع هذا المصطلح عند نقادنا وأدبائنا قولا وكتابة (١٧) ، وامتد الاستعمال عند القدماء الى مدى أوسع ، حتى وسم به عدد من الكتب مثل « صناعة الكلام » للجاحظ ، و « الصناعتين » لأبى هلال العسكرى ، و « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » لابن رشيق القيروانى ، و « الجامع الكبير فى صناعة المنظوم من الكلام والمنثور » لابن الأثير . و « احكام صنعة الكلام » للكلاعى الأندلسى ، و « صبح الأعشى فى صناعة الانشاء » للقلقشندى ... الخ .

وتحدث « ابن طباطبا » فى كتابه « عيار الشعر » عن بناء القصيدة تحت عنوان « صناعة الشعر » ، ولعل

---

١٥ — كتاب ارسطوطاليس فى الشعر ص ٢٩ ، ترجمة وتحقيق شكرى عياد ، وانظر ص ٤٣ بناء القصيدة .

١٦ — البيان والتبيين ج ٢ ص ١٠٠ ، تحقيق عبد السلام هارون ، الطبعة الأولى ١٩٤٨ م .

١٧ — يراجع : البيان والتبيين ج ٢ ، طبقات فحول الشعراء ص ٧ ، تحقيق محمود شاكر ، الوساطة ص ٩٥ ، ١٨٦ ، مقدمة ابن خلدون ص ٧٠٤ .

مفهـوم « صـناعة » عند نقـادنا القدامى يقابل مصطلح « فـن » فى النقـد الحـديث ، واستعملوه على سبيل المجـاز • وقـد ذهب طبـانة هـذا المذهب فـرأى أن كلمـة « صـناعة » هى الكلمـة التى اختارها النقـاد للدلالة على ما يـراد بكلمة « فـن » لأن فى كـل منهمـا معنى المهـارة والتفنن (١٨) •

— ٣ —

مفهوم الشـعر عند ابن طباطبـا :

يضـع ابن طباطبـا من أثـر ممارسته لنظـم الشعر مفهوما للشـعر فيقـول : « الشـعر — أسعدك الله — كـلام منظـوم بان عن المنثـور الذى يستعمله النـاس فى مخاطباتهم ، بمـا خص بـه من النظـم الذى ان عـدل بـه عن جهتـه مجتـه الأسماع وفسـد على الذوق» (١٩) •

وابن طباطبـا شـأنه شـأن غـيره ممن أدركتهم حـرفة الشـعر فيحـدد موقفـه منـه •

« ليس هنـاك من هـو أقـدر من الشـاعر فى الحـديث عن موقفـه من الشـعر وموقف الشـعر منـه » (٢٠) •

١٨ــ قـدامة بن جعفـر والنقـد الأدبى ص ٣٥٧ وما بعدهـا ، الطبعـة الثانية ، مطبعـة الرسالة ١٣٧٨ هـ ، ١٩٥٨ م .

١٩ــ عيـار الشـعر ص ٥ .

٢٠ــ أدبـاء من السعودية ص ١١٣ ، د. يوسف نوفـل ــ الطبعة الأولى سـنة ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م .

« يعد ابن طباطبا أحد الشعراء الطالبيين ، بل أحد شعراء أصبهان ، وقد خلف لنا ديوان شعر أشار اليه ابن النديم فى الفهرست وقال : ان أبا بكر الصولى جمعه ورتبه على حروف المعجم» (٢١) .

ومفهوم الشعر عند ابن طباطبا مفهوم عروضى للشعر ، لأنه يتناول جانب الشكل ، ولا يتحدث عن المضمون . مع أن المضمون هو روح الشعر وأهم جانب من جوانبه . وهذا التعريف مهما يكن شأنه — يلفت النظر الى ركن يراه جمهور كبير من الأدباء وعلماء الأدب ضروريا ، ولازما للشعر ، هو ركن الموسيقى التى تتمثل فى الأوزان من ناحية وفى القوافى من ناحية أخرى . ولم يقف ابن طباطبا بتعريفه للشعر عند حد الوزن والقافية ، بل يؤكد على الفرق بين عنصرى التعبير النظم والنثر ، ليؤكد أنهما نوعان مختلفان فى طريقة التشكيل ، ولكنه يركز على جانب واحد هو النظم ، كما هو واضح من تسميته الكتاب بـ « عيار الشعر » ليكون أساسا للحكم على الشعر بالجودة أو الرداءة . وتنبىء كلمة « عيار » بالمقاييس الموضوعية التى وضعها الناقد وجعلها ميزانا للتفاضل بين الشعراء ، فكأن الشعر بذلك علم موضوعى له قوانينه التى تحدد طبيعته وطرقه التى تحدد قيمته .

٢١ــ الفهرست لابن النديم ص ١٦٨ ، وينظر مقدمة كتاب عيار الشعر ص ٢١ تحقيق د. المانع .

— ٤ —

ثقـــافة الشـــاعر :

لقـد كـان للقـول بأن الشـعر صناعة تعتمـد على الطبـع والثقـافة والخبـرة أثـر كبـير فى التركيز على الاطار الثقـافى لذى يستمد منـه الشـاعر زاده « فهى تشـكل الرافـد الأساسى الذى يمـده بالمعـانى والصـور بالألفـاظ ، ويقـدر عمـق هـذا الرافـد وغـزارته تكون قـدرة الشاعر على التعبـير والانطلاق فى آفـاق الفـن الرحبـة ... والصـلة بين الثقـافة وصـنعة الشـعر حميمـة ، لأنـه حين تكـون الصنعة لابـد أن تكتمـل أدواتها ، ورصيدها الذى تمتاح منـه ، فالشعر لا يفيض كمـا يفيض المـاء من النبـع ، وانمـا هـو عمـل عقـلى وشعورى يتطلب قـدرا عظيمـا من المعـرفة المتنوعة التى تصـقل موهبة الشاعر ، وتثـرى وجـدانه (٢٢) .

ومن ثـم فقـد أدرك ابن طباطبـا قديمـا ما للثقـافة من أهميـة ، وما يرتبط بهـا من دور كبـير وأساسى فى عملية الابداع الشـعرى وطـالب الشـاعر بمعـرفة ثقـافة عصـره وعـلومه فقـال : وللشـعر أدوات يجب اعدادها قبـل مرامه ، وتكلف نظمه ، فمن نقصـت عليـه أداة من أدواتـه لـم يكمـل لـه ما يتكلفه منـه ، وبان الخـلل فيمـا ينظمـه ، ولحقتـه العيـوب من كـل

٢٢ــ نظرية الشعر فى النقـد العربى القديم ص ٧٧ ، د. عبد الفتاح عثمـان ــ مكتبة الشـباب .

جهة فمنها : التوسع فى علم اللغة ، والبراعة فى فهم الاعراب ، والرواية لفنون الآداب ، والمعرفة بأيام الناس وأنسابهم ومناقبهم ومثالبهم والوقوف على مذاهب العرب ... ثم قال وجماع هذه الأدوات كمال العقل الذى به تتميز الأضداد (٢٣) .

ولاشك فى أن نظرة ابن طباطبا الى ثقافة الشاعر تدل على وعيه بطبيعة الفن الشعرى ، لأن الثقافة أمر حيوى يعمق رؤية الشاعر للحياة ، ويثرى مداركه ، ويجعل فطنته للأشياء أوسع وأشمل ، ولا غرابة فى هذا فقد كان ابن طباطبا شاعرا .

وقد سبق ابن طباطبا ابن رشيق فى الدعوة الى النظم الى أشعار المولدين بالاضافة الى الشعر القديم ، لأنه تتوافر فى أشعارهم أشياء لم تكن للأقدمين . يقول ابن طباطبا : « وستعثر فى أشعار المولدين بعجائب استفادوها ممن تقدمهم ولطفوا فى تناول أصولها منهم ، ولبسوها من بعدهم ، وتكثروا بابداعها فسلمت لهم عند ادعائها الطيف سحرهم فيها وزخرفتهم لمعانيها » (٢٤) .

« وهذه دعوة معاصرة حقا ، فما أكثر النقاد المحدثين المعتدلين الذين يطلبون الى الشاعر الحديث أن يجمع بين الثقافتين

٢٣ـ عيار الشعر ص ٦ .
٢٤ـ عيار الشعر ص ١٢ .

القديمة والحديثة ، ويأخذ المناسب من كل فى منأى عن التعصب وازدراء القديم لقديمه وحب الحديث لحداثته » (٢٥) .

وقد فطن ابن طباطبا الى هذه الحقيقة التى أيدها أيضا علم النفس الحديث وتتمثل هذه الحقيقة فى دور الثقافة فى انضاج الشعر .

« ان لم يكن الشاعر أو الأديب أو الفنان ذا ثقافة واسعة أجهد نفسه فى اكتسابها ، لما أتيح له أن يصوغ الآيات الفنية الخالدة اتى تطوى الدهر طياً بدون أن تفقد روعتها بل يزداد جمالا كلما اتسعت آفاق الانسان الثقافية وأصبح أوسع فهما وأنفذ صبرا » (٢٦) .

— ٥ —

ابن طباطبا وعلما العروض والقافية :

يتصل بأدوات الشعر وثقافة الشاعر أيضاً علما العروض والقافية ، بيد أن ابن طباطبا لم يذكرهما من بين أدوات الشعر ، ولعل هذا يفسر لنا موقف ابن طباطبا من علمى العروض والقافية ومدى حاجة الشاعر اليهما . يقول ابن طباطبا : فمن صح طبعه وذوقه لم يحتج الى

٢٥ـ بناء القصيدة ص ٥٨ .

٢٦ـ مبادىء علم النفس العام ص ٢٢٣ ، د. يوسف مراد دار المعارف بمصر ١٩٥١ م .

الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التى هى ميزانه ومن اضطرب عليه الذوق لم يستغن عن تصحيحه وتقويمه بمعرفة العروض والحذق بها حتى تصير معرفته المستفادة كالطبع الذى لا تكلف معه (٢٧) .

يرى ابن طباطبا فى هذا القول أن تعلم العروض لا يخلق شاعرا ، وأنه ليس ضروريا للشاعر لقول الشعر ، لكن لا بأس بمعرفته ، حتى اذا ما أعاد الشاعر النظر فى قصيدته ليثقفها بعد الفراغ من نظمها ، وبدت له فيها أشياء عروضية تحتاج الى تعديل وتصحيح يكون لديه من معرفة العروض والقوافى ما يكفى لذلك ويقوم . ولا يعنى هذا القول من ابن طباطبا التضارب مع قوله عند حديثه عن مفهوم الشعر « كلام منظوم بان عن المنثور .. ونظمه محدود معلوم ... الخ » فعنده أن الشاعر المطبوع مستغن بطبعه عن معرفة الأوزان ، أما الضعيف فهو محتاج الى معرفة شىء من ذلك يعينه على ما يحاوله من هذا الشأن .

ولعل هذا ما دفعه الى تأليف كتاب فى علم العروض تذليل هذا العلم ، وتمكنه من التأليف فيه « وقد ذكر له ياقوت ضمن ما صنفه كتابا فى علم العروض لم يسبق الى مثله » (٢٨) .

٢٧ـ عيار الشعر ص ٦ .

٢٨ـ معجم الأدباء ج ٦ ص ٢٨٥ ؛ وينظر مقدمة عيار الشعر ص ٢٥ .

ووصف الكتاب بأنه لم يسبق الى مثله يؤذن بأنه نهج فى عرض المادة عرضا جديدا يسهل جناها للدارسين . كما يدل على عنايته بموسيقى القصيدة القائمة على الوزن والقافية ، فقد أولى ابن طباطبا هذين الركنين عناية فائقة اذ يطلب من الشاعر اختيار الوزن والقافية ، مما يدل على تقديره للجانب الموسيقى فى القصيدة ، لأن الموسيقى الشعرية تقوى الصورة الفنية التى تؤثر فى المشاعر ، وتوحى بالأفكار ، وهما متلازمان فى العمل الشعرى . يقول ابن طباطبا : « واذا أراد الشاعر بناء قصيدة فخص المعنى الذى يريد بناء الشعر عليه فى فكره نثرا ، وأعد له ما يلبسه اياه من الألفاظ التى تطابقه ، والقوافى التى توافقه والوزن الذى سلس له القول عليه » (٢٩) . ومما انفرد به ابن طباطبا عن سائر النقاد القدامى دعوته الشاعر الى اختيار الوزن والقافية ، ولم يتوقف ابن طباطبا فى دعوته عند حد اختيار الشاعر الوزن ، بل ذهب الى أبعد من هذا وطلب من الشاعر الربط بين الوزن وموضوع القصيدة ، وهو ما يعد بادرة غير مسبوقة فى تراثنا النقدى .

« وبهذا نقول ان موافقة الشعر للغرض لم تغب عن ابن طباطبا ، كما لم يغب عنه أن الشعر فن بفضل صياغته » (٣٠) ، وتحدث ابن طباطبا فى كتابه « عيار الشعر »

٢٩ــ عيار الشعر ص ٧ ــ ٨ .

٣٠ــ فى النقد القديم والبلاغة ص ٧٦ ، د. عبد الحميد القط دار المعارف ، الطبعة الأولى ١٩٩٢ م .

عن اختيار الوزن المناسب وما يحدثه من متعة جمالية تطهر النفس من مشاعرها الزائدة ، وتأثيره الساحر فى المتلقى ، قد يصل الى أن يكون أشد اطرابا من الغناء ، وأعمق منه فى تربية النفوس بل السخائم وحل العقد عن طريق التوازن النفسى ، يقول ابن طباطبا : « وللشعر الموزون ايقاع يطرب الفهم لصوابه ، وما يرد عليه من تركيبه واعتدال أجزائه ، فاذا اجتمع مع صحة وزن الشعر صحة المعنى وعذوبة اللفظ وصفا مسموعه من معقوله من الكدر ثم قبوله واشتماله عليه • وان نقص جزء من أجزائه التى يعمل بها وهى : اعتدال الوزن وصواب المعنى وحسن الألفاظ ، كان انكار الفهم اياه على قدر نقصان أجزائه • ومثال ذلك الغناء المطرب الذى يتضاعف له طرب مستمعه المتفهم لمعناه ولفظه مع أطيب ألحانه ، فأما المقتصر على طيب اللحن منه فناقص الطرب » (٣١) •

ولما كان ابن طباطبا أول من التفت الى هذه القضيه ، ولم يسبقه اليها أحد من نقادنا القدماء يحاول بعض الباحثين فى العصر الحديث أن ينكروا على ابن طباطبا ذلك الكشف ، ويتهمونه بأنه متأثر بأرسطو ، وأنه يقيس شعرنا العربى بمقياس غير عربى •

يقول داود : وفى كتاب « عيار الشعر » يوضح بما

٣١ـ عيار الشعر ص ٢١ ـ ٢٢ .

لا يقبل الشك أو الجدل بأن الرجل كان ينقل نقدا غير عربى ، وهو يحاول تطبيقه على الشعر العربى ، ويدعو فيه الى الربط بين الوزن والموضوع • وهذه الحقيقة وهذا النوع من الموازنة انما هى دعوة يونانية بحتة تخص طبيعة العلاقة بين « الأوزان » و « الأغراض » الشعرية المتعارفة عندهم كالمأساة والملهاة والملحمة(٣٢) •

ويحاول هذا الباحث فى كتابه « مقالات فى النقد والأدب » (٣٣) من خلال المقارنة بين أقوال ابن طباطبا وأرسطو وبخاصة فى ما يتعلق بمسألة الوزن وربطه بموضوع القصيدة أن يكشف عن تأثير أرسطو فى ابن طباطبا حيث يقول ابن طباطبا : « وعلى الشاعر إذا اضطر الى اقتصاص خبر فى شعره دبره تدبيرا يسلس له معه القول ويطرد فيه المعنى ، فيبنى شعره على وزن يحتمل أن يحشى بما يحتاج الى اقتصاصه بزيادة من الكلام يخلط به ، أو نقص يحذف منه ، وتكون الزيادة والنقصان يسيرين غير مخدجين لما يستعان فيه بهما ، وتكون الألفاظ المزيدة غير خارجة من جنس ما يقتضيه بل تكون مؤيدة له وزائدة فى رونقه وحسنه كقول الأعشى فى مدح السموأل :

٣٢ـ مقالات فى النقد والأدب ص ٢٦٢ ، د. داود سلام ، دار نهضة مصر العربية ١٩٧٨ م •

٣٣ـ ص ٢٦٢ •

كن كالسموأل اذ طاف الهمام بـه
فى جحفل كرهاء الليل جـرار (٣٤)

يقـول داود سلام : فـلو قارنا هـذا النص بالنص المقتبس من الترجمـة العربية القديمة لكتـاب « فـن الشعر » حول مسألة الوزن لرأينـا العلوى انمـا يتكلم بسـان أرسـطو ومضامينه ، قـال أرسـطو : « وصـنعة الأسطر والوزن مختلفة فى طـول توامهـا .. » و « أمـا وزن النشيدات فانمـا وقعت من التجربة ، وذلك أن الانسـان ان هـو أتى وغـير « اقتصاص » ما والتشبيه الذى بالكثـير فـانه يـرى غـير لائق ولا خليق من قبـل أن وزن النشـيد هـو أكثـر ارتكـازا وأكثـر لـه قـرارا من جميـع الأوزان .. » (٣٥) .

ولـم يكتف داود سـلام بمقـارنة هـذه الأقوال ، بـل يجـزم فيقول : والشىء الذى لا نشـك فيـه مطلقـا أن العلـوى « ت ٣٢٢ هـ » قـد اطـلع فعـلا على كتـاب « الشعر » فهـو قـد نشـأ فى حيـاة أو بعـد وفـاة الكندى « ت ٢٠٢ هـ » وعاصر حنين بن اسـحاق « ت ٢٩٨ هـ » وعاصر أبـا بشـر متى بن يونس « ت ٣٢٨ هـ » والفـارابى « ت ٣٣٩ هـ » (٣٦) .

ان ترجمـة كتـاب « الشعر » لأرسطو فى حيـاة ابن طباطبا ،

٣٤ـ عيـار الشـعر ص ٧٢ ـ ٧٣ .
٣٥ـ مقـالات فى النقـد والأدب ص ٢٦٣ .
٣٦ـ المرجـع السـابق ص ٢٦٢ .

وحيـاته فى زمن من ترجمـوه لا تقـوى دليـلا على تأثره بأرسطو وذلك لاعتبارات عـدة منهـا : —

أولا : أن ابن طباطبا العلوى لـو كان متأثرا فى نقده بأرسطو لكشف عن هـذا التـأثر كـل من عاصره أو جـاء بعـده من النقاد وتتبعـوا كتـابه « عيـار الشـعر » وأحصـوا ما رأوه غلطـا لا يستقيم مع فكرتهم أو مذهبهم فى دراسـة الأدب كمـا غعـلوا مع قـدامة بن جعفـر وكتـابه « نقـد الشعر » فقـد ألف الآمدى « ت ٣٧١ هـ » صـاحب كتـاب « المـوازنة » كتـابا نقـد فيـه قـدامة وسـماه « تبيين غلط قـدامة بن جعفـر فى كتـابه نقـد الشـعر » كمـا ألف ابن رشـيق القيروانى « ت ٤٥٦ هـ » صاحب كتـاب « العمـدة » كتـابا سـماه « تزييف نقـد قـدامة » .

ولعبد اللطيف البغـدادى « ت ٦٢٩ هـ » صـاحب كتـاب « قوانين البـلاغة » كتابان أحدهمـا شـرح نقـد الشعر لقدامة سـماه « تكملـة الصـلة فى شـرح نقـد قـدامة » والآخـر « كشـف الظلامة عند قـدامة » ، ولابن أبى الاصـبع المصـرى « ت ٦٥٤ هـ » صـاحب كتـاب « تحـرير التحبـير » كتـاب « الميـزان فى الترجيح بين كـلام قـدامة وخصـومه » (٣٧) .

٣٧ـ يراجـع : معجـم الأدبـاء ج ٣ ص ٥٨ ، المـرازنة ص ١٢٥ للآمدى ، طبعـة صـبيح ، ص ٤٩ ، تحـرير التحبـير لابن ابى الاصبع ، فـوات الوفيات ج ٢ ص ١٠ ، كشـف الظنون ، وانظـر ١٥٨ اصـول النقـد د. خفـاجى .

ثانيا : ان « ابن الأثير » فى كتابه « المثل السائر » يذكر أن الشعر والخطابة فى الأدب العربى لم يتأثرا بثقافة اليونان فى الأدب والنقد والبيان • ويذكر أنه اطلع على ما كتبه ابن سينا فى الخطابة والشعر ، فلم يوافق ذوقه ؛ ورأى أن ما ذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربى (٣٨)•

ثالثا • يصف ياقوت الحموى ابن طباطبا وعلاقته بمعاصريه من أدباء وشعراء ورجال سياسة ويبدو من خلال هذه الأخبار : أن صلات ابن طباطبا برجالات عصره ، كانت عموما محدودة (٣٩) ، كما ينص ياقوت نصا صريحا ، نقلا عن أحد الأدباء المعاصرين لابن طباطبا بأنه لم يفارق أصبهان بل عاش فيها ومات ، مما جعل أغلب المصادر الموسوعية ككتاب تاريخ بغداد ، وتاريخ دمشق مثلا تغفل ذكره ، لأنه لم يدخل بغداد ولا دمشق ، وهذا ابن خلكان لا يعرفه ويقول : « ولا أدرى من هذا أبو الحسن » (٤٠) •

رابعا : أن ابن طباطبا لم يكن من بين فريق نقاد القرن الرابع الهجرى الذين ذكرهم خفاجى والذين كتبوا بروح أدبى هذبت فكرته ووسعت أفقه الثقافات الأخرى التى هضمها القرن الرابع وأحالها غذاء عقليا • ومن هؤلاء

٣٨ـ المثل السائر ج ١ ص ٢٠

٣٩ـ مقدمة عيار الشعر ص ١٢ •

٤٠ـ معجم الأدباء ج ٦ ص ٢٨٥ ، وفيات الأعيان ج ١

جعفـر ابن قدامة ، وقدامة بن جعفـر ، وابن العميد ، والصاحب ابن عبـاد ، وأبو هـلال العسكرى (٤١) .

خامسا : يذكـر شكرى عيـاد أن كتـاب الموشح للمرزبانى « ٣٨٥ هـ » فكـل ما فيـه جمـع لمـا قـال العلمـاء والنقـاد بالشعر قبـله وقبـل الاتصال بالفـكر والبلاغـة اليونانيين ومن هنـا تجىء أهميـة الكتـاب (٤٢) .

سادسا : يقـول يوسف بكـار : يمكن أن يقـال فى ثقـة أن استعمال القـدامى للفـظ « صناعة » منـذ وقت مبكر ينبىء عن أنهـم الى عصـر قدامة بن جعفـر فى منـأى عن الأثـر اليونانى والتـأثر بأرسـطو (٤٣) .

وهنـاك العـديد من الباحثين المحدثين الذين يقفون فى خندق واحـد مع داود سـلام ويؤكدون على تأثـير البـلاغة اليونانية فى عـلم البـلاغة العربية (٤٤) .

ويـرى آخـر : أن أرسطو المعـلم الأول للمسلمين فى عـلم البيـان . وأن عبد القاهـر حين وضـع كتـابه « أسرار البلاغة » لـم يكن الا فيلسوفا يجيـد شـرح أرسـطو والتعليق عليه (٤٥) .

٤١ـ أصـول النقـد ص ١٥٠ .

٤٢ـ ص ٢٢٨ بلاغـة ارسـطو بين العـرب واليونان . ابراهيم سـلامة .

٤٣ـ ص ٤٦ بنـاء القصـيدة .

٤٤ـ ضـحى الاسـلام ج ١ ص ٢٧٧ ، أحمـد أمين .

٤٥ـ مقـدمة نقـد النثـر ص ٦ ، ١١٨ ، ١٤ ، ٢ ، للعبادى الطبعـة الثانيـة .

ومن عجب أن يزعم زاعم أن أرسطو كان أبا النقد فى الآداب الأوربية ، وفى الأدب العربى كذلك (٤٦) ، « فذلك هو الخطأ الذى ليس بعده خطأ » (٤٧) .

ويمكن القول بعد هذا كله فى ثقة واطمئنان أن ابن طباطبا انفرد عن سائر النقاد القدماء بدعوته الشاعر الى اختيار الوزن والقافية ، وفكرة الربط بين موضوع القصيدة ووزنها وقافيتها ، وأنه لم يكن متأثرا فى هذا بأرسطو لا من قريب ولا من بعيد . ودعوته الى اختيار الشاعر القافية حتى لا يقع فى قافية لا تسلس لخواطره ولا تنقاد لمعانيه .

» واذا كانت القافية خاصة من خصائص الشعر العربى . فان كل شاعر قبل أن يشرع فى نظم قصيدته يعمد الى اختيار القافية التى تلائم ذووه وموضوعه ، والتى يظنها تطاوعه وتنقاد له حتى يتم غرضه (٤٨) .

وقد حصر ابن طباطبا القوافى فى سبعة أقسام اما أن تكون على فاعل أو فعال أو على مفعل ، أو على فعيل ، أو على فعل ، أو على فعل أو على فعيل .

ويرجع حصره القافية فى هذه الأقسام المذكورة كما

٤٦ـ المدخل فى النقد الادبى ص ١٧٤ ، د. غنيمى هلال .

٤٧ـ اصول النقد ص ١١٧ .

٤٨ـ قدامة بن جعفر والنقد الادبى ص ٢٢٦ ، د. بدوى طبانة ، مطبعة الرسالة .

يقـول ابن طباطبا : « حتى تأتى على الحـروف الثمانية والعشرين فمنهـا ما يطلق ومنهـا ما يقيـد ثم يضـاف الى كل بنـاء منهـا الى هـاء المذكـر أو هـاء المؤنث • ويتفق هـذا فى الرجز فهذه حـدود القـوافى لـم يذكرها أحـد ممن تقـدم فأدرهـا على جميـع الحـروف : واختـر أعذبهـا وأحسنها وأشكلها للمعنى الذى تروم بنـاء الشـعر عليـه » (٤٩) •

٤٩ـ عيـار الشـعر ص ٢١٧ ، ٢١٨ •

الفصـــــل الثـــــانى

تأليف القصيدة ومراحله عند ابن طباطبـا

أولا : تأليف القصـيدة :

ان أسـاس أى عمـل فنى هـو تكوينه الذهنى عند الفنـان ويقصـد بالتكوين الذهنى العمليات العقلية التى تتجمـع من خلاله عناصر العمـل الفنى ، وتنبض فى ثنـاياه حـركة الابداع» (٥٠).

ومما لاشـك فيـه أن معالجة ابن طباطبا لنظـم الشـعر وتعاطيه لـه جعلت لـه نظـرات صائبة فى النقـد الأدبى ، لأنهـا ناشـئة عن ممارسـة وتجـربة .

اذا كان أحسن ناقـد للهندسة هـو المهندس ، وأحسن ناقـد لصناعة الحـدائق هـو البستانى ، فاننا نتسـاءل هـل يكون أحسن ناقـد هـو الشـاعر ؟

يقـول ابراهيم حمـادة : غـير أن الشعراء النقـاد الأعظم شـأنا ـ بوجـه عـام ـ قـد برهنـوا على أن لهـم القـدح المعلى ، وكـانوا حيث توقعناهم أن يكونوا ، وذلك باعلانهم عن كيفية بنـاء العمـل الفنى ، والى أى الأهـداف يقصدون (٥١) .

٥٠ـ علم النفس فى الفـن والحياة ص ١٢٣ ، د. يوسف مراد .

٥١ـ مقـالات فى النقـد الأدبى ص ٢٥ ، د. ابراهيـم حمـادة ، العـدد ٨٩ ، دار المعـارف .

ويجىء ابن طباطبا العلوى فى أوائل النقـاد القدامى الذين كتبـوا عن بنـاء القصـيدة وكيفية تأليفها « على الرغـم من ايمان قـدامى الشعراء والنقـاد العرب بصعوبة نظـم القصائد وتعقيده ايمـانا يقربهم من الالتقـاء بوجهـات النظـر الحديثة ـ فقـد انفـرد نفـر منهـم ـ وكلهـم شعراء ولـو أن الشـعر ليس مما يعرفون بـه فى الدرجـة الأولى ـ بالحـديث عن كيفية نظم القصـيدة وخلقهـا كـان ابن طباطبا أقدمهم تنـاولا للموضـوع وأكثرهم احـاطة بـه (٥٢) .

ومن ثـم ينفـرد ابن طباطبا العلوى بتنـاول أمـور لـم يتعـرض لهـا معاصروه ، ولـم يسبقوا اليهـا ، فهـو يتحـدث عن بنـاء القصـيدة : ويتصـل بنـاء القصـيدة بموضوع آخـر هـو وحـدة القصـيدة اتصـالا وثيقـا ، حتى ليصـح القـول بأنهمـا موضوع واحـد أسـماه النقـد الحديث بالوحدة العضوية والحـديث عن وحـدة القصيدة عند ابن طباطبا سنعرض لـه فى بحـث لاحـق ان شـاء الله .

وقـد تحـدث ابن طباطبا العلوى « فى كتـابه عيـار الشعر » عن خطـوات تكوين العمـل الفنى ممثـلا فى القصيدة الشـعرية فيقـول : « فـاذا أراد الشـاعر بنـاء قصـيدة مخض المعنى الذى يريـد بنـاء الشعر عليـه فى فكره نثـرا ، وأعـد لـه ما يلبسه ايـاه من الألفـاظ التى تطابقه ، والقـوافى التى توافقه ، والوزن

٥٢ـ بنـاء القصـيدة فى النقـد العـربى القـديم ص ٧٤ .

الذى سلس له القول عليه ، فاذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذى يرومه أثبته وأعمل فكره فى شغل القوافى بما تقتضيه من المعانى على غير تنسيق للشعر وترتيب لفنون القول فيه ، بل يعلق كل بيت يتفق له نظمه ، على تفاوت ما بينه وبين ما قبله ، فاذا كملت له المعانى وكثرت الأبيات وفق بينها بأبيات تكون نظاما لها ، وسلكا جامعا لما نثرت منها ثم يتأمل ما قد أداه اليه طبعه ، ونتجته فكرته فيستقصى انتقاده ، ويرم ما وهى منه ويبدل بكل لفظة مستكرهة لفظة سهلة نقية .

وان اتفق له قافية قد شغلها فى معنى من المعانى واتفق له معنى آخر مضاد للمعنى الأول وكانت تلك القافية أوقع فى المعنى الأول ، نقلها الى المعنى المختار الذى هو أحسن ، وابطل ذلك البيت ، أو نقض بعضه ، وطلب لمعناه قافية تشاكله ، ويكون كالنساج الحاذق الذى يفوف وشيه بأحسن تفويف ويسديه وينيره ، ولا يهمل شيئا منه فيشينه ، وكالنقاش الدقيق الذى يضع الأصباغ فى أحسن تقاسيم نقشه ، ويشبع كل صبغ منها حتى يتضاعف حسنه فى العيان ، وكناظم الجوهر الذى يؤلف بين النفيس منها والثمين الرائق ، ولا يشين عقوده بأن يفاوت بين جواهرها فى نظمها وتنسيقها ، وكذلك الشاعر اذا أسس شعره على أن يأتى فيه بالكلام البدوى الفصيح لم يخلط به الحضرى المولد ، واذا بلفظة غريبة أتبعها أخواتها . وكذلك اذا سهل ألفاظه لم يخلط بها الألفاظ الوحشية النافرة الصعبة القياد ، ويقف على مراتب

القـــول والوصف فى فـــن بعـــد فـــن ، ويتعهد الصـــدق •• ويحضر لبـــه عند كـــل مخاطبة ووصف ، فيخاطب المـــلوك بمـــا يستحقونه من جليـــل المخاطبات ويتوقى حطهـــا عن مراتبها ، وأن يخلطهـــا بالعـــامة ، كمـــا يتـــوقى أن يرفـــع العـــامة الى درجـــات الملوك ويعـــد لكل معنى ما يليق بـــه ولكل طبقـــة ما يشاكلها (٥٣) •

« ان صناعة الشعر على هـــذا النحـــو الذى صوره ابن طباطبا تبـــرز حقيقـــة الشـــعر فى رأى معظـــم النقـــاد القدماء ، فهـــو عمـــل ارادى يصـــدر عن وعى من الشـــاعر ، ويحشـــد فيـــه كل طاقتـــه الشعورية والفكرية ويتـــأمل بفطنته كـــل دقائقه وأسراره ويقـــوم بعملية نقـــد مستمرة لـــه حتى يصـــل فى النهـــاية الى الصياغة الفنيـــة الناضجة للفـــكرة المجـــردة ، وفى ظـــل هـــذه النظـــرة لطبيعة العمـــل الشعرى برزت أهميـــة التجـــويد كعمـــل فـــنى يصاحبه خطـــوات فى تشكيل القصـــيدة» (٥٤) •

ثانيـــا : مراحل ابداع القصـــيدة :

وتتمثـــل هـــذه الخطوات فى المراحـــل التى يستغرقها الشاعر فى خـــلق قصيدته حتى تصـــبح عمـــلا فنيـــا متكاملا ، بعـــد أن كانت فكـــرة ذهنيـــة مجـــردة ، وتتضح فكـــرة المراحل فى ابـــداع القصـــيدة من خـــلال النصوص الـــواردة عن ابن طباطبا فى كتـــابه « عيـــار الشـــعر » •

٥٣ــ عيـــار الشـــعر ص ٧ : ٩ .

٥٤ــ نظـــرية الشـــعر فى النقـــد العـــربى القـــديم ص ٦٧ ــ ٦٨ .

« وبـذا يلتقى نقـدنا القـديم فى الغالب باتجـاه واسـع فى النقـد الحديث حـول القـول بمراحل خـلق القصيدة ، وان كـانا يختلفان فى طبيعة المراحـل وعددهـا ، وفى السـبل المؤدية اليهـا ، وهـذا أمـر بدهى تقتضـيه طبيعـة كـل من النقـدين وظروفهما ، لا فى هـذه المسـألة فحسب وانمـا فى مسـائل أخرى كثـيرة » (٥٥) .

واعتمـادا على النصوص الـواردة عن ابن طباطبا يمكن حصر مراحـل تكوين القصـيدة فى المراحـل التالية :

١ ــ مرحـلة التفكير والاعـداد :

وهى مرحـلة التحضير ورسـم مخطط ذهنى للقصيدة يبـلغ فيهـا درجـة كبـيرة من التهيـؤ والنشاط العقـلى الذى يرتبط بالشعور والانفعـال ، يقـول ابن طباطبا : « فـاذا أراد الشاعر بنـاء قصـيدة مخض المعنى الذى يريد بنـاء الشعر عليه فى فكره نثـرا » (٥٦) .

يتضـح من هـذا القـول : ضرورة توفـر موضوع سـابق وتجـربة سابقة فى ذهـن الشـاعر ، وما ارتـآه ابن طباطبا » دعـا اليـه المشتغلون بالنقـد والشـعر فى العصـر الحـديث .

« ان اتضـاح الفـكرة والتجربة فى نفس الشاعر والوقـوف

٥٥ــ بنـاء القصـيدة ص ٩٠ .
٥٦ــ عيـار الشـعر ص ٧ .

على أجزائهـا بفـكره ، وترتيبهـا قبـل التفكير فى الكتابة من شروط الشـاعر الحـق عند ادجـار ألـن بـو » (٥٧) .

وقـد أكـد الشعراء المعاصرون خليـل مـردم ، وبهجـة الأثرى ، ومحمد مجـذوب ، وأحمـد رامى أن موضوع القصـيدة وصورها بتجربتها يعيش فى النفس قبـل الكتابة ، وقـد تطـول مدته ، فتـأتى بعـد ذلك ، كمـا يقـول رامى : « لحظـة معينـة تكـون بمثـابة فرصـة لبزوغ أو لظهـور هـذه الفكرة التى ظلت مختمـرة من زمـن » (٥٨) .

ومن هنـا فقـد نادى ابن طباطبا بنشـر الفكرة ، ولا يضيره أن ينزل بالشـاعر الى هـذا الحـد بجعـله كطالب عـلم أو متعلم لغـة أجنبية مبتدىء لا يعـرف استعمالاتها ومصطلحاتها ورموزها ؛ لأن ابن طباطبا كـان ينظـر الى الشـعر على أنـه صناعة تقـوم على التعليم والثقـافة والدربة . وقـد ذهب مذهب ابن طباطبا من جـاء بعـده بمئـات السنين من أصحاب نظريات النقـد الحديث مثـل « بوب » و « جونسون » اللذين قررا أن القصيدة هى وضع مـادة قـابلة للنشـر فى نظـم بـارع » (٥٩) .

٥٧ـ النقـد الادبى الحـديث ص ٣٨٤ ، د. غنيمى هـلال ، الطبعـة الثالثة ، مطـابع القاهـرة ١٩٦٤ م .

٥٨ـ يراجـع : الأسس النفسية للابداع الأدبى ص ٢١٢ ، بنـاء القصـيدة ص ٢١٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٤ .

٥٩ـ مناهج النقـد الادبى بين النظـرية والتطبيق . ترجمـة د. محمـد يوسـف نجـم ـ بـيروت ١٩٦٧ ـ ريتشـاردز ا. ا. . بتصـرف .

وتقودنا مرحلة التفكير والاعداد عند ابن طباطبا الى القول بأن ابداع القصيدة وخلقها أقرب الى الارادية منه الى التلقائية ، فهو عمل ارادى يصدر عن وعى من الشاعر ، ويحشد فيه كل طاقاته الشعورية والفكرية ، ويتأمل بفطنته ودربته كل دقائقه وأسراره •

وقد أيد ابن طباطبا فيما ارتآه فى تشكيل القصيدة النقاد والمحدثون ، فها هو ذا « ادجار آلن بو » بعده بمئات السنين يذهب الى أن خلق القصيدة ارادى من أوله الى آخره ، يحسب فيه الشاعر حسابا لكل صغيرة وكبيرة ويرتب كل خطواته عن وعى وادراك كاملين (٦٠) •

ولا يتوقف الأمر فى تكوين القصيدة عند ابن طباطبا عند حد مخض المعنى فى فكره نثرا بل يسعى للتفتيش عن القوافى الموافقة ، والوزن الذى سلس له القول عليه •

ولأحد الشعراء المعاصرين تجربة تقترب مما نص عليه ابن طباطبا فى القول : بالتفتيش من البحر والقافية اذ يقول : فأول ما يعترض الشاعر من المصاعب فى قول قصيدة من قصائده ، انما هو الاهتداء الى البحر الذى يناسب معانى هذه القصيدة ، فاذا اهتدى الى هذا البحر لزمه أن يفتش عن القافية •• ثم اذا اجتمع للشاعر البحر والقافية أخذ

٦٠ـ بتصرف ص ٥٣ ، بناء القصيدة ، الأسس النفسية للابداع الفنى ص ١٨٤ .

يحوم حول المطلع ، وقد يقضى وقتا غير قصير قبل الظفر بهذا المطلع .. والبحر والقافية والمطلع ، هذه هى الأمور التى تشغل فكر الشاعر قبل كل شىء ولا يبلغها الا بعد قليل أو كثير من الجهد وقد يكون هذا الجهد جاهدا فى بعض الأحياء (٦١) .

وهناك من ينكر على الشاعر أن يطلع بوضع منهج معضل جامع لكل صغيرة وكبيرة لقصيدة ما ، يقول الشاعر السورى المعاصر رضا صافى : « ولم أكن فكرت بمنهج خاص للقصيدة أو وضعت لها مخططا ، وحينما أحاول ترتيب الخطة أو وضع المخطط لا أستطع تحقيق ما رتبت ولا تنفيذ ما رسمت ، بل يجمح بى القول فاذا أنا أنظم شيئا لم أكن قد فكرت به قبل مجلسى للكتابة » (٦٢) .

ولا يقلل هذا من رأى ابن طباطبا فى شىء ، لأن ما يكتبه الفنانون عن فنهم ربما كان مما يجلو لنا هذا الفن ، ويضفى عليه فيضا كبيرا من الضوء ، وحسب ابن طباطبا : أنه كان شاعرا قبل أن يكون ناقدا ، وهو أقدر من غيره على التفسير والتقنين كما سبقت الاشارة الى ذلك .

٦١ـ أنا والشعر ص ٨٩ ، شفيق جبرى ، منشورات معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٩ م القاهرة .

٦٢ـ الأسس النفسية للابداع الفنى ص ٢٢٠ ، وانظر ص٩٦ بناء القصيدة .

٢ ـ مرحلة الشروع فى النظم :

تقوم طريقة ابن طباطبا فى هذه المرحلة على اثبات كل بيت موافق لمعنى يخطر على بال الشاعر اثباتا عشوائيا ، اذ ليس مهما أن يراعى ما قبله وما بعده من أبيات ، بل المهم أن ينظم أبياتا كيفما اتفق له ذلك .

يقول ابن طباطبا : « ... فاذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذى يرومه أثبته وأعمل فكره فى شغل القوافى بما تقتضيه من المعانى على غير تنسيق للشعر وترتيب لفنون القول فيه ، بل يعلق كل بيت يتفق له **نظمه على تفاوت** ما بينه وبين ما قبله ، فاذا كملت له المعانى وكثرت الأبيات وفق بينها بأبيات تكون نظاما لها وسلكا جامعا لما تشتت منها ، ثم ما يتأمل ما قد أداه اليه طبعه ، ونتجته فكرته فيستقصى انتقاده ، ويرم ما وهى منه ، ويبدل بكل لفظة مستكرهة لفظة سهلة نقية » (٦٣) .

ولعل ابن طباطبا فى نظرته هذه يدعو الى الاهتمام بوحدة البيت وصولا الى وحدة القصيدة ، لأن القصيدة بناء فنى متكامل يقوم على وحدات بنائية صغيرة هى الأبيات ، وهذه الوحدات يمكن أن تستقل بنفسها ، لأنها الخلية الأولى فى تركيب العمل الشعرى .

٦٣ـ عيار الشعر ص ٨ .

« ان المرحلتين السابقتين لا تختلفان كثيرا عن أى مرحلتين يمر بهما أى عمل صناعى وهما مرحلة التصميم ومرحلة التنفيذ » (٦٤) .

٣ ـ مرحلة التأليف والتنسيق :

وهى مرحلة جمع شمل الأبيات ولم شتاتها ، يدعو ابن طباطبا فى هذه المرحلة الى لم شتات الأبيات والتأليف بينها تأليفا يساعد على تسلسل معانيها وارتباط بعضها ببعض ، وكأنى به يطلب من الشاعر أن يصنع لقصيدته شبئا من الوحدة بعد الفراغ من نظمها مهلهلة مبعثرة الأبيات ، يقول ابن طباطبا : « وينبغى للشاعر أن يتأمل تأليف شعره وتنسيق أبياته ، ويقف على حسن تجاورها أو قبحه ، فيلائم بينها لتنتظم له معانيها ، ويتصل كلامه فيها ، ولا يجعل ما بين قد ابتدأ صنعه أو بين تمامه فصلا من حشو ليس من جنس ماهو فيه كما أنه يحترز من ذلك فى كل بيت ، فلا يباعد كلمة عن أختها ، ولا يحجز بينها وبين تمامها بحشو يشينها ، ويتفقد كل مصراع هل يشاكله ما قبله » (٦٥) .

٤ ـ مرحلة التنقيح والتجويد :

التنقيح قديم جدا فى دنيا الأدب والشعر خاصة ،

٦٤ـ الأسس الفنية للنقد الأدبى ص ٤٨ ، د. عبد الحميد يونس الطبعة الثالثة ـ المعرفة القاهرة ١٩٦٦ م .

٦٥ـ عيار الشعر ص ٨ .

وهذهب عـام فى أكثـر آداب الأمـم ينقـل عن هوراس قـوله : ازدروا قصـيدة لـم تتناولها الأيام الطـوال والاصلاح المتـوالى بالصـقل عشرات المـرات ، ولـم تهـذب كظفـر قـص قصـا محكمـا» (٦٦) .

ويؤثـر عن الشاعر والأديب الفرنسى المعاصر « بول فاليرى » ان الشعراء وأصـحاب الفـن فى العصـور القديمة كـانوا ينقحون آثارهم ويهذبونها ينقصون ويضيفون ويلائمون بين الأجزاء مبتغين الكمـال ما وجـدوا إليـه سـبيلا (٦٧) .

أمـا أدبنـا العـربى القديم ، فـان الشعر فيـه قـد عرف التنقيـح منـذ أقـدم عصـوره ، فها هـو ذا امـرؤ القيس يقـول :

أزود القـوافى عـنى زيـادا
زيـاد غـلام جرىء جـرادا

فلمـا كثـرن وعنينـه
تخـير منهـن شـتى جيـادا

٦٦ـ فـن الشـعر ص ٦٦ لأرسطو طاليس ، ترجمـة عبد الرحمن بدوى ، مكتبـة النهضـة المصرية ١٩٥٣ م ، وانظـر بنـاء القصـيدة ص ٩٨ .

٦٧ـ فصـول فى الأدب والنقـد ص ١٩٤ ، د. طـه حسـين ، الطبعـة الرابعـة ١٩٦٩ م .

فأعـزل مرجانهـا جانبـا
وأخـذ من درهـا المستجادا (٦٨)

وأمـر مدرسة المحكك فى الجاهلية ـ مدرسة زهـير والحطيئة وأضرابهما ـ معـروف مشهور وهى المدرسة التى يقول كعب بن زهير مفتخـراً :

فمـن للقوافى شأنها من يحوكهـا
اذا ما ثـوى كعب وفوز جـرول

نقـول فـلا نعيـا بشىء نقـوله
ومن قائليهـا من يسىء ويجمـل

نثقفهـا حـتى تلين متونهـا
فيقصر عنهـا كـل ما يتمثـل

كفيتك لا تلقى من الناس شـاعرا
تنخـل منهـا مثـل ما نتنخـل (٦٩)

ثـم اسـتمر تنقيـح الشعر وتهذيب القصائد بعـد الجاهلية مذهبـا لأكثر الشعراء ولفت نظـر النقـاد القدامى مسألة التنقيح هـذه عند الشعراء ومنهـم ابن طباطبا العلوى اذ يقـول : فواجب على صـانع الشـعر أن يصنعه صـنعة متقنـة لطيفة ، مقبـولة

٦٨ـ ديـوان امـرىء القيس ص ٩٠ صـادر بيروت ١٩٥٨ م .
٦٩ـ ديـوان كعب بن زهـير ص ٥٩ ، ٦٠ ، شـرح صـنعة السـكرى ، الدار القومية للطبـاعة والنشـر القاهـرة ١٩٦٥ م .

حسنة مجتلبة لمحبة السامع له ، والناظر بعقله اليه مسترعية لعشق المتأمل فى محاسنه والمتفرس فى بدائعه (٧٠) .

ويقول أيضا : فينبغى للشاعر فى عصرنا أن لا يظهر شعره . الا بعد ثقته بجودته وحسنه وسلامته من العيوب التى نبه عليها وأمر بالتحرز منها ، ونهى عن استعمال نظائرها (٧١) .

ومرحلة التنقيح ضرورة لابد منها ، لأن الشاعر يستطيع أن يضيف فيها شيئا الى قصيدته أو ينقص شيئا اذا ما عن له خاطر جديد فى موضوع القصيدة وفكرتها .

ومن يطالع النقد الحديث الأجنبى والعربى فلا يجد جديدا فى مسألة التنقيح ، يضاف الى ما قاله ابن طباطبا وغيره من النقاد القدامى سوى التوسع فى التعليل والاطناب فيه (٧٢).

وبهذا يكون ابن طباطبا قد أدرك أهمية مرحلة التنقيح فى القصيدة قبل النقد الحديث الأجنبى والعربى « وليس من المبالغة أن يقال ان هذين النقدين لم يضيفا شيئا الى ما فى نقدنا العربى القديم (٧٣) .

٧٠ـ عيار الشعر ص ١٢٧ .

٧١ـ المصدر السابق ص ١٤ .

٧٢ـ يراجع فى هذا بناء القصيدة ص ١٠٣ ، مناهج النقد الأدبى ص ٢٧٩ ، الشعر كيف نفهمه ونتذوقه ص ٢٨ ، حديث الأربعاء ج ص ١٣٤ .

٧٣ـ بناء القصيدة ص ١٠٥ .

وهـذه المرحلة من أخطـر وأهـم مراحل الابداع الفـنى للقصيدة ، لأنهـا مرحـلة مراجعة واعيـة للقصيدة ، ينقـد فيهـا الشـاعر نفسـه ، انهـا مرحلة مهمـة للشـاعر والقصيدة معـا ، بـل والمتلقى كـذلك .

« ويبـدو أن الحـرص على التجـويد مـرده الى مراعـاة حـال المتلقى ، والرغبـة فى كسـبه ، واجتلاب محبتـه ، فالشاعر ينقـح شـعره ويثقفـه ابتغـاء مرضـاة المستمع أو القـارىء فهـو لا يرضى حاجتـه الفنيـة ، وانمـا يرضى المستهلك ، ومن ثم فموقف الشاعر صعب ، لأن المطلوب منـه أن يحـدث توازنا بين أجـزاء العمـل من ناحية وبين هـذا العمـل وشعور المتلقى من ناحية أخـرى » (٧٤) .

وممـا يـدل على عنـاية ابن طباطبا بهـذه المرحلة واهتمامه بهـا رفضـه فـكرة الضرورات فى الشـعر وتجنب ارتكابها على الرغـم من وجودهـا فى الشـعر العـربى منذ العصر الجاهلى ، وقـد جـاءت بهـا رخصـة من أهـل العربية ، فقـد طـلب الى شـعراء عصـره ألا يضعوا فى نفوسهم أن الشعر موضـع اضطرار « وأنهـم يسلكون سـبيل من كان قبلهم ، ويحتجون بالأبيات التى عيبت على قائليها ، فليس يقتدى بالمسىء ، بل يقتدى بالمحسن » (٧٥) .

٧٤ـ نظـرية الشـعر فى النقـد العـربى القـديم ص ٧٢ .
٧٥ـ بتصرف عيـار الشـعر ص ١٤ .

وبعد أحد عشر قرنا من الزمان تأتى نازك الملائكة لتقف الى جوار ابن طباطبا وترفض فكرة الضرورات من أساسها ، فثلما رفضها ابن طباطبا من قبل وتقول : « نحن نرفض بقوة وصرامة أن يبيح شاعر لنفسه أن يلعب بقواعد النحو واللغة لمجرد أن قافية تضايقه أو تفعيلة تضغط عليه ، وأنه لسخف عظيم أن يمنح الشاعر نفسه أية حرية لغوية لا يملكها الناثر .. ان كل خروج على القواعد المعتبرة ينقص من تعبيرية الشعر ويبعده عن روحية العصر » (٧٦) .

٧٦ـ قضايا الشعر المعاصر ص ٢٩٦ ، الطبعة الأولى ، دار الآداب بيروت ١٩٦٢ م .

نتـــائج البحـــث

١ ــ لا تقف جهـود ابن طباطبا العلوى ــ النقـدية ــ عند حـد طـرائق صناعة الشـعر ومراحـل ابداعـه وتأليفه منـذ أن كـان خاطـرا فى الذهن مجـردا حتى يصـير عمـلا فنيـا مكتملا ، بـل تخطى أبعـد من ذلك وتجـاوزه ممـا لا يتسـع لـه القول ويتفق مع طبيعـة البحـث .

٢ ــ انفـرد ابن طباطبا العلوى عن سـائر النقـاد القدامى بدعوته للشـاعر الى اختيـار الوزن والقافية والربط بينهمـا وبين موضـوع القصـيدة ، وأنـه لـم يكن متـأثرا فى هـذا بأرسطو لا من قـريب ولا بعيـد .

٣ ــ ذهب ابن طباطبا الى أن تعـلم العروض لا يخلق شاعرا ، وأنـه ليس ضروريا للشاعر لقول الشعر ، لكنه لا بأس بمعرفته . ويلتقى فى هـذا مع النقـد الحـديث .

٤ ــ نادى ابن طباطبا العلوى بالاكتساب ، وهـو ما يركـز عليـه النقـد الحديث فى عملية الابداع ، وهـو ما يعرف بالاطار الشعرى الذى يعـد فى طليعة شروط الابداع ، ومنهـا الاطلاع على آثـار الشعراء السابقين ، وكثـرة القراءة ، وقـد أدرك ابن طباطبا العلوى ما للثقافة من دور كبـير وأساسى فى عملية الابداع الشعرى وطـالب الشـاعر بمعـرفة ثقـافة عصـره وعلومه .

٥ — سبق ابن طباطبا ابن رشيق القيروانى فى الدعوة الى النظر فى أشعار المولدين بالاضافة الى الشعر القديم ، لأنه تتوافر فى أشعارهم أشياء لم تكن للأقدمين .

٦ — يكشف تصور ابن طباطبا للابداع الفنى للقصيدة على مراحل ، ادراكه بأن الشعر صناعة قولية تعتمد على الجهد الارادى الواعى الذى يمتلك فيه الشاعر أدواته الفنية ، وأنه يخضع لما تخضع له سائر الصناعات من التجويد والتقاليد الفنية .

وبعد ...

فهذا جهدى فيما قصدت ، وأرجو الله أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه فى محاولة الكشف عن عبقرية علم من أعلام النقد الأدبى القديم من الذين أسسوا وأرسوا قواعد هذا الفن العربى الأصيل ينظر إليها النقد الحديث من عل .

والحمد لله فى الأولى والآخرة

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ،،

دكتور
على جاد الحق سعيد

المراجـــــع

١ ــ ادبـاء من السعودية ــ د. يوسـف نوفـل ــ الطبعـة الأولى ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م .

٢ ــ اساس البـلاغة للزمخشرى ــ ت كتاب الشعب العـدد ١٢٧ .

٣ ــ الأسس الفنية للنقـد الأدبى ، د. عبد الحميد يونس ــ الطبعـة الثانيـة ــ المعـرفة القاهـرة ١٩٦٦ م .

٤ ــ أصـول النقـد ــ د. محمد عبد المنعـم خفـاجى ، مكتبة الكليات الأزهـرية .

٥ ــ انـا والشـعر ــ شـفيق جبـرى ــ منشورات معهـد الدراسات العربية العالميـة ١٩٥٩ م القاهـرة .

٦ ــ بنـاء القصـيدة فى النقـد العـربى القـديم ، د. يوسف بكـار الطبعة الثانية ــ دار الاندلس .

٧ ــ البيـان والتبيين ــ للجـاحظ ــ تحقيق عبد السـلام هـارون ــ الطبعـة الأولى ١٩٤٨ م .

٨ ــ بلاغـة أرسـطو بين العـرب واليونان ، د. ابراهيم سـلامة ــ الطبعـة الثانية ــ مطبعة مخيمـر القاهـرة ١٩٥٢ م .

٩ ــ التكامل فى القصـيدة العربية ، د. لطفى عبد البديـع ، دار المعارف بمصـر ١٩٦٢ م .

١٠ــ طبقـات فحـول الشعراء لابن سـلام ، تحقيق محمود شـاكر ــ دار المعـارف بمصـر ١٩٥٢ م .

١١ــ عيـار الشعر لابن طباطبا « ت ٣٢٢ هـ » ــ تحقيق د. عبد العزيز المـانع ــ مطبعة المـدنى بالقاهـرة .

١٢ــ العمـدة فى صـناعة الشـعر ونقـده ــ ابن رشـيق القـيروانى تحقيق محيى الدين عبد الحميد ــ الطبعة الثالثة ــ مطبعة السعادة القاهـرة ١٩٦٣ م .